العقل

بقلم حضرة صاحب العزة حسن بك نبيه المصري
المستشار بمحكمة الاستئناف الاهلية بمصر

تمشت التربية العقلية زمناً وهي مشدودة بين التعليم العتيق والتعليم العصري وفي النهاية تغلب النظام الحديث فأخرج للامة بعض الرجيلات الذين كانوا أول غرس حبة التعليم العصري فأنبتت شجيرات كان يؤمل أن تنمو فتصير دوحات تتأصل في ارض النيل وتمتد فروعها على ابنائه ولكن عاقبها بستاني اجنبي غاصب لبث ثلاثين عاماً ونيفاً وهو يقلم الفروع ويستأصل الجذور . وأخذ يغير ويبدل ويمحو ويثبت في معمل التجاريب في نظام التعليم لا كما يقتضيه ارقي العلم ولكن كما يفرض الهوى ويلائم الاستعباد لوضع العصائب على العيون . فكان الطلبة الذين يتخرجون في فن واحد من مدرسة واحدة اذا اختلفت مدة تخرجهم ينكرون بعضهم لا ترى بينهم مشابهة لا في معقولهم ولا معلوماتهم وذلك لاختلاف المواد التي تلقوها وتغيير أساتذتهم وعدم اتحاد مبادئهم والشطط في اختيار الكتب وتبديلها . وتكون النتيجة عدم الوحدة في تربية عقول أبناء الامة الواحدة فتتشعب الآراء وتختلف صورة الامر الواحد والمبادىء في الحكم ويعتقد كل واحد منهم أنه على هدى وان اخاه على ضلال فيتناكرون وهم أخوة أولاد أم واحدة وهي مصر . فكما أنهم يتغذون من ترابها ومن مائها وهوائها وهي واحدة وجب أن يكون غذاؤهم العقلي واحداً فتأتلف عناصر مصر المعنوية كما توحدت عناصرها المادية في جسومهم .

ولقد كان من أمر هذا النظام المهوش أن أخرج للامة أبناء حائرين بين العلم والجهل . لا هم من العلماء فينفعونها فتستغني بهم عن جيش الاجانب . ولا هم بالجهلاء فيكونون حجة على مدير دفة التعليم في مصر . ولا يساعدونه على حكم

البلاد بادخالهم في أعمال الحكومة قاصري النظر . فبدل أن يكون أبناء مصر عوناً لها يكونون عوناً عليها ويظلون آلة في يد الغاصب يضرب بها ألوف رجالها الذين فطرهم الله على الاباء وعلو الهمة .

هل لنا بعد ذلك الزمن الطويل والتجارب المتكررة أن نضع أساساً للتعليم لا تلعب به أيدي الهوى وينهض بنا الى المستوى الذي لا يطعن عليه من الداخل ولا نحتقره في الخارج الامم التي تسير معها مصر وتريد أن نحيا حرة في صفها . ولا ننسى ان جميع الامم لها رقباء علينا وعيون تترقبنا قد يكون في مصلحتهم عدم تفتيح عيون المصريين ويقظتهم ومعرفة حقوقهم وما من شأنه حفظ نروتهم في ديارهم وانصباب ما يكسبونه من كدهم وعرق جبينهم في جيوبهم . فهم يجدون الآن حجة متينة بعدم كفاءتنا ولكنهم في الغد لا يستطيعون أن يجادلونا متى ارتفعنا الى الدرجة التي لا تصل الينا فيها سهام رامي الامة بالجهل مهما كانت قوة ساعده ومهارته في اصابة المرمى .

اني لست من القانطين وليس من الضروري أن يعمر الانسان الف سنة ليعرف بعد التجاريب الشخصية المقنعة حقيقة الارس العتيق الذي يلقيه التاريخ . إن حياة الامم الادبية والسياسية والاجتماعية تتحرك كالمد والجزر . ففي زمن نرى تيار القوة الفكرية والادبية يشتد . تتموج فيه العقول كالبحر الزاخر . وتارة نراه يضعف وينضب بل يغيض كأن لم يكن بالامس ويخال للانسان أنه لن يعود . أنظر الى مصر فكم رقت وكم انحطت . إن من يقارن تواقع المصريين في حب العلم وحركتهم الفكرية العظيمة في هذا العصر بعدم اكثرائهم من ثلاثين سنة وغرام الشبيبة في اللحاق بالمدنية الحاضرة لدى الامم الكبرى وتغريبهم في بقاع الارض لارتشاف العلم بفنونهم من نصف قرن مضى بما كسبوا بحكم بمستقبل زاهر . ويعتقد أنه مهما حيل بين أبناء النيل وبين المورد الطاهر لكوثر العلم لا بد أنهم بالغوه . ولا يمكن تعليل هذا التيقظ بعد السبات العميق الا بالقاعدة الطبيعية التي لا تكذب وهي أن محاربة الفكر وعوق تقدم الامة في عصر تطورها وعلى الخصوص اذا

اشترك معها الضغط العظيم بقوة أجنبية لتقطع عليها الطريق . فالامة تمشي في سيرها مرة طوعاً ومرة كرهاً وأخرى مسترسلة بلا خوف وتارة بحذر واحتراس حتى ينتهي الامر بها أن تسير في تيارها . ولا يستطاع كبح جماحها وردها الى الوراء . والبواعث على ذلك عديدة منها المنع الموجب للحب . والحرمان الموجب للشراهة . والتقييد الموجب للاطلاق . والضيق في العيش الموجب لايجاد طرق الفرج . والضرورة التي تفتق الحيلة . والمصارعة في الحياة الموجبة للقوة بالقيام بالمقاومة حتى لا تصرع الامة في هذا المعترك المهول . إن مثل هذا كمثل اعصار أثار غباراً وهز الاشجار وكاد يذهب بالانفاس فهو لا شك هادم وتذهب الريح العاتية لتترك وراءها نسماً عليلاً وهواء نقياً وهذه هي نظرية الفعل والانفعال فكلما اشتد أحدهما كان الآخر قوياً ومتيناً ولذلك كان التاريخ كموج البحر فتارة كالجبال وأخرى كنقش النسيم على الماء والوديان التي تتخلف بينه طوراً سحيقة وتارة دقيقة . فمن الخرق وضع العوائق لهذه الزوابع . فالمقاومة تزيد عتوها ومتى هدأت ثورتها وبزغت شمس الحقيقة بضوئها الوهاج وبددت العناصر التي غيرت وجه الهيئة الاجتماعية والحكومة والآداب حتى ما كان يدعونه أنه العلم وألقتها في واد بعيد .

وماذا ينتظر من أمة اذا كان قادتها وأوصياؤها في التربية والتعليم يدورون مع الزمان كيف دار فيخضعون تواضعاً أو نفاقاً فيخدعون أمام الضغط فمن الحمق أن الأمة تسير مع القاعدة التي نسيها أولئك الناس . وهي المد والجزر في قوة الأمة الفكرية التي تكاد تكون قانوناً طبيعياً وعلى ذلك فالحركة الفكرية لا يمكن توقيفها بارادة شخص وسلطة مستبدة متى أخذنا نعمل على أن الجزر لا يصل بالامة الى النضوب ولا تترك التيار يتجدد بعد الصعود الى الهبوط . فاذا وصلنا الى بسط العلم ونقلناه الى الشعب على قدر عقول الكافة بنشر الكتب والرسائل والمحاضرات العمومية وأصبحت طريقة وضرورة لاستثارة الامة تعذر على أية

قوة أن نردها عن سبيلها. فكلما زادت تلك القوة وفعلت اشتدت الامة وانفعلت

لقد يعترض على هذه الطريقة ويخال لي أن اكبر انتقاد يوجه اليها هو أنها لا تؤدي الى نشر التعليم الحق وتكون وسيلة الى نصف تعليم قد يكون ضرره اكبر من نفعه . نعم أن هذه الملاحظة فيها شيء من الصدق وليس هنالك شك في أن كثيراً من الفكر الناقصة والتي لم تنضج بل الفاسدة قد تتسرب بهذه الطريقة بين المتعلمين والجاهلين بلا حسيب لا سيما في عهدنا هذا الذي فيه خطوات الحياة سريعة وكثير منا يخطفون معلوماتهم ويظنون أنهم أوتوا فضل الله بما قشطوا من الرغوة الطافية في وعاء مما يدرسون . ولكن هذا الاعتراض بوجه عام اعتراض جائر وإنا نجرم اجراماً ونسيء الى تقدمنا وارتقائنا الفكري اذا أخذنا بهذا الاعتراض وتركنا هذا المجهود وليس في مقدور أحد أن يجادل في أن نصف التعليم حتى ربع التعليم أولى من عدم التعليم . وكل مجهود في سبيل محاربة الجهل وانقاص التعليم يجب احترامه وتقويته ولو لم نبلغ منه الغاية أو لم نصل الا إلى مدى قصير ولا نخشى أن تتسرب من آن الى آخر فكرة غير ناضجة أو ناقصة حتى الفكرة الخاطئة أو تعريف غامض عنا يلقونه إذ أن هذا غير مستطاع لانه ناتج من عدم الكمال في هذه الدنيا . ولا يوجد فيها شيء مهما كان حسناً الا وفيه عيوبه . ولكن لا يسمح على أي حال أن نترك الحسن والا نصبح اكثر ضلالا من الذين يريدون أن يعطلوا السفر والنقل بقطار السكة الحديدية لان بعض الناس لقي حتفه ودهمه القطار . وان فساد رأي الذين لا يريدون الا تعليما تاما يتضح كالصبح عند ما يتأملون رأيهم ونتائجه المحتمة اذ أنه يقضي بتلك الفكرة على جميع دور التعليم في البلاد ابتدائية كانت أو ثانوية حيث أنها لا تخرج الا أنصاف متعلمين أو بالحري ليس فيها الا تعليم ناقص ولا تبقى الا المدارس العالية وتصبح النتيجة أن ينقسم العالم الى قسمين قسم متعلم أو مدع أن تعليمه كامل أو مفروض أن معارفه تامة أمام جيش من الجاهلين أو الاميين إن حالة مثل هذا مناقضة للبادىء الاولية لفن التعليم الحديث